

الهوامل المؤثرة في تكوين صورة الإسلام في الغرب

مساهمة الدكتور محمد فاروق النبهان

مدير دار الحديث الحسنية

المقدمة

إلى جامعة الصحوة الإسلامية

التي انعقدت بتاريخ 20- 22 دجنبر 1996 بالدار البيضاء

تعتبر الكتابات الغربية عن الإسلام المصدر الأهم لمعرفة صورة الإسلام والمسلمين في الغرب، وتشمل الكتابات الغربية ما تنشره المجلات والصحف من مقالات وبحوث، وما يصدر عن الكتاب الغربيين من مؤلفات ودراسات، تتناول كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين، سواء في مجال التعريف بشريعة الإسلام وأحكامه وعقائده وقيمه، أو في مجال التعريف بحياة المجتمعات الإسلامية، الممتدة في المنطقة الجغرافية التي يشكل المسلمون فيها الأكثرية، مما يطلق عليه البلاد الإسلامية ..

والكتابات الغربية كثيرة ومتنوعة، ولما نجد دراسة عن تاريخ الحضارات لا تحظى فيها الحضارة الإسلامية بقسم وافر من الاهتمام، سواء في مجال الآداب والعلوم والفنون والفلسفة أو في مجال التعريف بدور المسلمين في تطوير الزراعة والصناعة والتجارة ..

ومن الطبيعي أن تختلف هذه الكتابات الغربية من حيث موضوعيتها ودقتها وصدقها، فمنها ما هو جديد بالتقدير نظرا لدقته وموضوعيته وإنصافه، ومنها ما هو متحيز يخفي عداؤه تحت ستار من المنهجية المفتعلة، معتمدا في ذلك على روايات ليست موثقة..

وأهم هذه الكتابات ما تزخر به الموسوعات العلمية ودوائر المعارف التي تعتبر من أبرز المراجع التي يعتمد عليها والتي يحتج بها، سواء بالنسبة للباحث المتخصص أو القارئ العادي، ومن البدهي أن يرجع إليها الإعلام لمعرفة الكثير مما يريد معرفته عن الإسلام والمسلمين.

وتعتبر دائرة المعارف البريطانية من المراجع المعتمدة التي تحدثت عن الإسلام وخصصت له أكثر من مائة صفحة، تناولت فيه تاريخ الفرق الإسلامية، والعقائد الإسلامية والعبادات والتصوف الإسلامي، كما تناولت تاريخ الإسلام وتاريخ الدول الإسلامية ..

وقد أسهم الاستشراق بدور كبير في تكوين صورة الإسلام في الغرب من خلال ما صنفه المستشرقون من مؤلفات وما أعدوه من بحوث عن العالم الإسلامي.

والاستشراق ظاهرة ثقافية ومعرفية تغذيها مشاعر وتطلعات وانفعالات لاستكشاف ذلك المجهول المحاط بالغموض والرموز، وهو الشرق. والشرق في نظر الغرب كون جديد، وضفة مغايرة للغرب، صامدة ومتوترة ومنفعلة، تقاوم ولا تستسلم، تتحدى ولا تضعف .. وقد نشأت حركة الاستشراق كظاهرة ثقافية بعد ذلك الصدام بين الحضارة الإسلامية المتوثبة والحضارة الغربية المسيحية المتخاذلة، في عصر النهضة الإسلامية، ولما بدأت الحضارة الإسلامية بالتراجع في المجال الثقافي والسياسي والعسكري قامت الحروب الصليبية، واستعاد الغرب ثقته بنفسه، وبدأت مرحلة المواجهة والتصدي للعالم الإسلامي، وأخذ الاستشراق يؤدي دوره الثقافي والنفسي متأثرا بالموروث التاريخي للشخصية الغربية في نظرتها للحضارة العربية والإسلامية.

وصورة الإسلام اليوم في الغرب هي وليدة ذلك الموروث التاريخي الكامن في أعماق الشخصية الغربية، التي لم تستطع التخلص من قبضة تلك التراكمات التي سيطرت على العقلية الغربية، وجعلتها أسيرة مواقف وقناعات وتصورات ليست منصفة وليست موضوعية .. ولذلك جاءت محاولات الغرب لاستكشاف العالم الإسلامي مقرونة بالوصاية عليه.

وبالرغم من الجهد الكبير الذي بذله المستشرقون في المجال الثقافي، سواء في مجال التحقيق العلمي والتأليف المعجمي أو في مجال إعداد الموسوعات العلمية فإن المنهج الاستشراقي وقع في أخطاء جسيمة، ويعود سبب ذلك إلى ما يلي :

أولا : الحكم المسبق على الإسلام، سواء فيما يتعلق بموقفهم من القرآن والتشكيك في الروايات المتعلقة بالجمع والقراءات أو فيما يتعلق بالموقف من السنة والسيرة ..

ثانيا : جهل المستشرقين بحقائق الإسلام، وهذه ظاهرة نجدها لدى كثير من الباحثين الغربيين الذين يجهلون الإسلام ويعتبرون عقائده وأحكامه وقيمه من أسباب التخلف لأنها ليست صالحة للعصر الحاضر.

ثالثا : الاعتماد على الروايات الشاذة لدعم الأفكار الخاطئة التي تجعل الإسلام في موطن الإدانة.

والغرب اليوم من خلال موروثة التاريخي ينظر للعالم الإسلامي والشعوب الإسلامية من خلال تلك المرآة التاريخية المثقلة بالانفعالات النفسية والعواطف السلبية، ولذا فإن العقلية الغربية سرعان ما تستجيب لكل موقف سلبي يحمل في ثناياه تشويه صورة الإسلام وتكريس التصور الموروث ..

وفي ضوء هذه المقدمة التاريخية يمكننا فهم العلاقة القائمة اليوم بين الإسلام والغرب، وسوء الفهم المتبادل الذي يجعل صورة الإسلام في الغرب سلبية المعالم قاتمة الملامح قاسية متوترة،

يطبعها الغضب والانفعال، ويسيطر عليها التطرف والعنف، حتى أصبحت صورة المسلم في الغرب مشوهة مكروهة، وفي نفس الوقت فإن صورة الغرب في نظر المسلم مقتزنة بالتعالي والاستفزاز والتجاهل والحقْد والكراهية، مما يجعل النفوس مهيئة لتقبل الانفعال، ومستعدة للاستجابة لدواعي الغضب، دفاعاً عن الكرامة، وتعبيراً عما يجيش في النفس من انفعالات ..

ومن المؤسف أن الغرب وهو الأقوى حضارياً وعسكرياً واقتصادياً لم يحرص على تصحيح هذه الصورة، وبخاصة من خلال إعلامه القوي القادر على الإقناع. وبدأت الآن آثار هذا الموروث التاريخي تطفئ على سلوكيات المجتمع الأوربي وقناعاته وأفكاره وسياساته. ولسنا بحاجة للتذكير بخطورة المواقف والتوجهات التي يتبناها الغرب على الصعيد السياسي والتي تحمل الكثير من الدلالات والمؤشرات على تبني الغرب لسياسة معادية للعالم الإسلامي، مما يثير مشاعر التوتر في النفس ويعمق الفجوة بين الإسلام والغرب، وينعكس ذلك بصفة مباشرة على الأوضاع الأمنية والاستقرار الاجتماعي، وبخاصة بالنسبة للأقليات الإسلامية التي تعيش في البلدان الأوربية ..

ويعيش الغرب اليوم تحت تأثير كابوس مخيف يجسده اهتمام الإعلام الغربي بالظاهرة الإسلامية أو ما يسمى بالأصولية الإسلامية التي أصبحت المحور الرئيسي في اهتمامات الإعلام الغربي، الذي أخذ يتتبع باهتمام كبير ما يجري في العالم الإسلامي من أحداث، ويفسر ذلك بطريقة خاطئة في معظم الأحيان ..

وأود أن أؤكد أن إسلام اليوم لا يختلف عن إسلام الأمس، وأن شعارات اليوم هي شعارات الأمس، والجديد في الأمر يتمثل في ظاهرتين :

الظاهرة الأولى : زيادة الوعي في المجتمع الإسلامي بأهمية الإسلام كاختيار فكري ومنهج ثقافي وإيديولوجي في مواجهة التحديات الفكرية المعاصرة، وبخاصة بعد سقوط الشعارات الإيديولوجية المستوردة التي فشلت في تحقيق أهدافها .

الظاهرة الثانية : تدخل الغرب كطرف مباشر ومحرض ضد

الإسلام من خلال إعلامه ومواقفه، مما أدى إلى مقاومة هذا التدخل والتنديد به والتحذير من أخطاره. وتطرف الغرب في مواجهة الصحو الإسلامية أدى إلى ظهور شعارات التطرف لمواجهة هذا التدخل، وأصبحت كلمة الأصولية والجهاد من الكلمات التي تخيف الغرب. والأصولية بمفهوم الانتماء ليست جديدة، فلقد قاومت البلاد الإسلامية الاستعمار والاحتلال بعبارات الجهاد والاستشهاد ورفعت شعارات الإسلام لإيقاظ المشاعر الوطنية والشعور بالذاتية المتميزة ..

ولو تأملنا في بعض المصطلحات التي يرددها الغرب عن الإسلام لوجدناها مصطلحات مغايرة لمفاهيمها الحقيقية. فالتطرف والأصولية والجهاد والاستشهاد كلمات أصبحت في نظر الغرب دالة على منهجية الإسلام في رفض التعايش والتساكن، والاستهانة بحياة الأبرياء، واستخدام العقيدة الدينية لتبرير التطرف والعنف والاعتداء على الآخرين ..

إن من اليسير علينا أن نجد التطرف في كل المجتمعات في الغرب والشرق، في المجتمعات الدينية والمجتمعات غير الدينية، وأن نجد العنف في كل المجتمعات أيضا. فلماذا يوصف الإسلام بالتطرف والعنف، وتوصف الأصولية الإسلامية وكأنها مرادفة للعنف؟ ولماذا توصف الشعوب المدافعة عن حريتها واستقلالها بالشعوب الحية الجديرة بالاحترام، ويعترف لها بحق الدفاع عن كرامتها وحريتها وحقوقها، ولا يعترف للشعوب الإسلامية بحق الدفاع عن كرامتها وحريتها واستقلالها ؟..

إن الإسلام يحض على احترام حق الإنسان في الحياة والكرامة، ويحرم كل أنواع الاعتداء، ويجعل العنف في موطن الإدانة والإنكار، لأنه دليل على خلل في الشخصية الإنسانية. وفي نفس الوقت فإن الإسلام يدعو المسلمين للدفاع عن عقيدتهم ودينهم وكرامتهم، ويحضهم على الجهاد لمقاومة المعتدين. وليس هناك تناقض بين الدعوة إلى احترام حق الحياة والدعوة إلى الجهاد، لأن الجهاد هو أداة حماية الحياة ..

وهذا لا يمنعنا من الاعتراف بوجود سلبيات في مواقفنا وسلوكياتنا تسهم بطريقة واضحة في تشويه صورة الإسلام في الغرب، وأهم هذه السلبيات ما يلي :

أولاً : تسخير الإسلام لخدمة أهداف سياسية، واستغلال العاطفة الدينية لدى الشباب لإثارة مشاعر التعصب المذهبي والطائفي، وهذه ظاهرة سلبية لأنها أدت إلى اختراق الجماعات الإسلامية وانقسامها وتناحرها ..

ثانياً : تعدد المرجعيات الدينية وتعصب كل مرجعية لأرائها ومواقفها : وهذه التعددية مضرّة ومفسدة لأنها تؤدي إلى المواجهة والفتنة، وتسيء لصورة الإسلام. ولو توفر الإخلاص في هذه المرجعيات لاحتمكت إلى الإسلام وتضافرت في سبيل الدفاع عن عقيدته وثقافته ..

ثالثاً : فقدان الجاليات الإسلامية في أوروبا لقيادات واعية ملتزمة بالقيم الإسلامية، وبعض أفراد هذه الجاليات يسيء لسمعة الإسلام، بسبب سلوكه المنافي للقانون أو للأخلاق، ولا يجوز أن يتحمل الإسلام مسؤولية السلوكيات الخاطئة المنحرفة ..

رابعاً : غياب حوار حضاري وديني وثقافي بين الإسلام والغرب، وبين الإسلام والمسيحية، ولا يجوز أن تكون غاية هذا الحوار دعوة المسلمين إلى الاستسلام والتسامح في حقوقهم والتخلي عن خصوصياتهم والانسلاخ من انتمائهم. وإنما يجب أن تكون غاية هذا الحوار استكشاف كل فريق للفريق الآخر، واحترام كل طرف لعقيدة الطرف الآخر ..

والعنف ظاهرة مرضية وهو دليل خلل في السلوكية الإنسانية، ويجب أن يعالج الخلل المؤدي إلى هذه الظاهرة، عن طريق التوعية والترشيد ومعالجة السلبيات، والاعتراف بالحقوق المشروعة للمواطن في الحرية والكرامة، والالتفات إلى أهمية الجوانب الاجتماعية التي توفر الأمن النفسي للمواطن ..

والتطرف غالبا ما يكون وليد تطرف، والتطرف ثمرة حتمية لتطرف سابق مقرون بالإذلال، فإذا ضاقت أوربا بما تراه من سلوكيات التطرف في مواجهة الغرب فعلى الغرب أن يخفف من قبضته الحديدية في إذلال الشعوب وفي تجاهل مطالبها المشروعة في الاستقلال الكامل، سواء في المواقف السياسية أو في السياسات الاقتصادية، وسياسة الهيمنة التي يمارسها الغرب على الشعوب الإسلامية تولد مواقف التطرف وسلوكيات الغضب ..

وإذا كنا نحرص على تصحيح صورة الإسلام في الغرب فإن هذا التصحيح لا يتضمن الدعوة إلى تسامح مذل ولا إلى تفريط بحق من الحقوق، ولا إلى إسقاط فريضة الدفاع عن كرامة الأمة في مواجهة أخطار محدقة، وهذا ليس تصحيحا وإنما هو تشويه وتفريط . .

ويحتاج التصحيح إلى مراعاة الخطوات التالية :

1 - تكوين جهاز إعلامي إسلامي قادر على إبراز القيم الإسلامية الأصيلة ومقاومة القيم الخاطئة، عن طريق التوعية والترشيد وإعداد البرامج التربوية والثقافية التي تجسد القيم الإسلامية الصحيحة، في احترامها لكرامة الإنسان وحقوقه الإنسانية.

2 - مقاومة التطرف الناشئ عن جهل وانفعال وتوتر، عن طريق تشجيع منابر الحوار الموضوعي، وإيجاد المناخ الملائم للتعبير عن الرأي في إطار تعددية فكرية يحترم كل فريق فيها حق الآخر في التعبير.

3 - الاهتمام بتكوين الدعاة والمرشدين، واختيار الدعاة المؤهلين نفسيا وثقافيا وسلوكيا للقيام بمهمة التوجيه الديني، والتعريف بالقيم الإسلامية الأصيلة، والتصدي للسلوكيات الخاطئة والمنحرفة التي تسيء لسمعة الإسلام وتعرض الجاليات الإسلامية للمضايقات التي تسيء لمكانتهم وتعرض مصالحهم للخطر.

4 - إعادة الاعتبار للور المسجد في المجتمع الإسلامي

كمؤسسة للعبادة وكمدرسة للتربية والثقيف، وكمنبر للحوار والتكوين، والحرص على استقلالية المساجد وحرمة رسالتها الدينية والثقافية، وإبعاد المساجد عن الصراعات والتكتلات المذهبية والطائفية والسياسية، لكي يحتفظ المسجد بقديسيته ويؤدي رسالته الروحية ..

5 - اختيار قيادات إسلامية قادرة على التوجيه السديد، وأن

تكون هذه القيادات متخلقة بأخلاق الإسلام، مستوعبة للمفاهيم الإسلامية، قادرة على حماية مصالح الجاليات الإسلامية، وأن تتصف بالحكمة والنزاهة وحسن التدبير وبعد النظر، وألا تكون ضيقة الأفق سريعة الانفعال تعرض مصالح هذه الجاليات لأخطار تسيء إليهم وتهدد استقرارهم .

وأؤكد على خطورة الدعاة الذين يتملقون عواطف العامة بالمواقف المتطرفة، والتشدد فيما يسره الإسلام، والحرص على إثارة التفرقة والفتنة بين المسلمين، فلا مصلحة للإسلام في إثارة أي خلاف، ولا مصلحة للمسلمين في أي موقف يضعف من قوتهم ويمزق وحدتهم، وعلينا أن نرفع شعار التعايش والتساكن من غير تفريط، وأن نمد يدنا للآخر من غير ضعف . . وأن ندافع عن حقوقنا المشروعة بالحجج المقنعة، وبالحكمة المطلوبة ..

وفي الوقت الذي ندعو فيه إلى ضرورة تصحيح صورة الإسلام في الغرب عن طريق التعريف الصحيح بالإسلام وإنكار السلوكيات الخاطئة والمنحرفة، فإن من واجب الغرب أن يحرص على تصحيح صورته لدى الشعوب الإسلامية، عن طريق احترام الخصوصيات الدينية والثقافية لهذه الشعوب، والاعتراف بحق المسلم سواء في مجتمع غربي أو في مجتمع إسلامي أن يدافع عن عقيدته وثقافته ومصالحه بكل الوسائل المشروعة التي أباحها الغرب لنفسه في دفاعه عن مصالحه الحيوية.

وعندما يوقف الغرب أثر ذلك الموروث التاريخي في فكره وعواطفه وتوجهاته فسوف يسهم في تكوين الظروف النفسية التي تخفف من حجم التوتر الذي يشجع سلوكيات الانحراف، والغرب عندما ينظر إلى الإسلام بموضوعية وانصاف فسوف يتمكن من إيجاد البيئة الملائمة لحوار حضاري بين الإسلام والغرب يؤدي في النهاية إلى توفير أسباب الاستقرار في سبيل ارساء دعائم الأمن والسلام ..

